



التفضيل بين الناس

خطب الجمعة

محاضرة بعنوان

2025-05-19

الأردن - عمان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علِّمنا وزدنا علماً وعملاً مُتَقَبَّلاً يا ربَّ العالمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

وبعد أيُّها الإخوة الأكارم: فإنَّ الله تعالى يقول في كتابه:

يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ
انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا (21)

(سورة الإسراء)

ليس كل تفضيل في الدنيا يقتضي الأفضلية:

لو نظرنا في حال الناس في الدنيا لوجدنا التفضيل بينهم واضحاً، انظر إلى شخصي لا يجد ما يكفيه من الطعام في يومه، وانظر إلى آخر رصيده في المصرف بالملايين (انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) انظر إلى استاذ في مدرسة ابتدائية في قرية نائية من القرى، وانظر إلى بروفييسور في جامعة راتبه بالآلاف. انظر إلى مُمرض يُعطى حقنة في مركز صحي بعيد في منطقة نائية، وإلى طبيب يُعَدُّ الأول في مجاله، تحتاج إلى أشهر لتأخذ موعداً عنده، تفضيل، الناس ليسوا على مرتبة واحدة، ادخل إلى دائرة من الدوائر أو وزارة من الوزارات، انظر إلى الوزير في مكتبه، وإلى الحاجب عند الباب الذي راتبه مئناً دينار، لاستقبال الناس على الباب (انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يعني الله تعالى يأمرك أن تنظر في التفضيل.

بالمقاييس ما كل تفضيل يقتضي الأفضلية، يعني الله تعالى فضل بعض الناس على بعض، لا يعني أنَّ المُفضَّلَين على الآخرين أفضل عند الله، لا، التفضيل لا يقتضي الأفضلية بالضرورة، بمعنى لو أنَّ أباً عنده ولدان، ولذا متفوق جداً دائماً علاماته مئة بالمئة، وعنده ولداً مُقَصَّر يأخذ ثلاثين أو أربعين بالمئة، ففضل الكسول على المُجتهد فأنى له بمدرسي خاص يُدرِّسه في البيت، وأنى له بهديَّة يُشجِّعه، وأعطاه وعداً بأنه إذا أتى بسبعين بالمئة وليس مئة بالمئة، فله مبلغ مالي، هذا فضله على الأول، لكن هل هذا يعني أنَّ الثاني أفضل عند الأب؟ لا، بالتأكيد الأول أفضل عند الأب، لأنَّ الأول ما احتاج إلى شيءٍ ومصاريف إضافية، وتنفُّق وحده، فليس كل تفضيل يقتضي الأفضلية.

أحياناً يمكن أن أُفضّل شخصاً على آخر لأنه أفضل عندي، نعم، لكن ليس دائماً ليس بالضرورة كل تفضيل يقتضي الأفضلية، فالله تعالى قال: (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) فُلّن الله تعالى شخصاً بالمال على شخصي آخر قليل المال، فهذا لا يعني أنّ من أخذ المال أفضل عند الله، ولا العكس.

الأفضل عند الله هو الأكثر تقوى لله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)
(سورة الحجرات)

{ يا بني هاشمٍ لا ياتينني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم }
(أخرجه أبو جحر العسقلاني)

{ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ }
(أخرجه أبو داوود وابن حبان)

فالأفضل عند الله هو الأكثر تقوى لله، الأكثر إحساناً لعباد الله، والدليل حتى ربنا عزّ وجلّ يُعطينا أمثلة عملية، أعطى المال لمن يُحب ومن لا يُحب، أعطاه لمن يُحب سيدنا عبد الرحمن بن عوف، أعطاه المال وهو يُحبه، وأعطاه لقارون وهو لا يُحبه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مِقَالَهُ لَتُنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)
(سورة القصص)

(وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مِقَالَهُ لَتُنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ) وليست الكنوز بل المفاتيح (لَتُنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ) يعجز عن حملها العُصبة من الناس، المفاتيح، اليوم لا يوجد مفاتيح لا يعجز عن حمل المفاتيح كله بطاقات، إذاً المال ليس مقياساً، لو كان مقياساً لأعطاه لمن يُحبه فقط، الفُلّك أعطاه لمن يُحبه ولمن لا يُحبه، أعطاه لفرعون وهو أكفر كَقَارِ الْأَرْضِ، وأعطاه أيضاً لذي القرنين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاتَّبَعَ سَبَبًا (85)
(سورة الكهف)

وسعى في الإصلاح، وسعى في عمارة الأرض وفي الإعمار، فالله تعالى يُعطي المُلْك لمن يُحب ولمن لا يُحب، يُعطي المال لمن يُحب ولمن لا يُحب، يُعطي المنصب لمن يُحب ولمن لا يُحب، يُعطي الأولاد والذُرِّيَّة لمن يُحب ولمن لا يُحب، إذا ليست مقياساً، فالله يُفَضِّل بعض الناس على بعض، في الرزق، في العطاء، في المال، في الصحة، سيدنا أيوب ربُّنا يُحبُّه، هو نبيُّ من أنبياء الله، لكنه حَبَّ عنه حيناً الصحة حباً شديداً، ممَّسه الضَّر.

إذا ليس المال، ولا الصحة، ولا الرزق الوفير، ولا المكسب، ولا المنصب الديني الزائل، كلها ليست مقاييس، قد تكون وقد لا تكون.

(انظر كيف فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) إنظر إلى الناس تجد تفصيل كبير جداً، هناك شخص اليوم لا يجد ويتمنى سقفاً يؤويه في غرفةٍ متر بمتر، وهناك شخص يعيش في قصر، تفصيل، هذا فَضَّلَ على هذا بشيءٍ، أي أعطى شيئاً لم يُعطه الثاني، لأنَّ المعنى المتبادل إلى الدهن فَضَّلَ يعني أفضل، لا، فَضَّلَ يعني أعطى شيئاً لم تعطيه للثاني، فَضَّلَ هذا على هذا، أعطيت هذا شيئاً لم أعطه للثاني، وبالمناسبة أحياناً الفاضل والمفضول كلاهما يكون فاضلاً في شيء ومفضولاً في شيء آخر، يعني ربُّنا عزَّ وجل قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْعَمُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ قَالِ الْخَائِشَاتُ قَائِمَاتٌ خَافَتُ أَنْ يَخْلَعْنَ عَلَيْهُنَّ الْحُلُمَ إِذْ يَخُلْنَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً
كَيِّسًا (34)

(سورة النساء)

المرأة مُفَضَّلَةٌ على الرجل في شيء والرجل مُفَضَّلٌ عليها في شيء، فكلُّ منهما مُفَضَّلٌ في شيء ومُفَضَّلٌ عليه في شيء آخر، فالرجل مُفَضَّلٌ في إنفاق ماله، وإدارته للبيت، وبما أعطاه الله تعالى من القدرة على التحمُّل، والمشاق، والأعمال، وتحصيل الرزق، فهو مُفَضَّلٌ، والمرأة مُفَضَّلَةٌ عليه فيما أعطاه الله تعالى من القدرة على تربية الأولاد، والعاطفة، ولزومها للبيت، وأدائها لمهمتها، فكلُّ منهما فَضَّلَ في شيء وَفَضَّلَ عليه في شيء آخر **(انظر كيف فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)**.

هذه الدرجات في الدنيا ما دامت لا تعني الأفضلية عند الله تعالى، قال: **(وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً)** يعني بالعامية لم تروا شيئاً بعد **(انظر كيف فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)** نظرت هذا ليس معه قرش وهذا معه مليون، هذا مُمَرِّضٌ ناشئ أجره ثلاثمائة دينار، وهذا طبيب في العملية الواحدة أجره عشرة آلاف دينار، هناك تفصيل، قال لك: لم ترى شيئاً بعد.

التفصيل في الآخرة يقتضي الأفضلية حتماً:

(وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً) هناك التفصيل الحقيقي، هناك في الآخرة التفصيل يقتضي الأفضلية حتماً، سترى شخصاً في النار في الدرك الأسفل من النار، المنافق، وسترى أشخاصاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)

(سورة النساء)

فانظر إلى الفرق! وضمن الجنة نفسها سترى شخصاً في الدرجة الدنيا، يعني أخذ نجاح خمسين بالمئة، وستجد شخصاً في أعلى درجات الجنان، وما بين كل درجتين من الجنة كما بين السماء والأرض، وكل درجة أعلى من الدرجة التي قبلها، وأعلاها الفردوس الأعلى من الجنة **(وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً)** هناك التفصيل.

فيا أحياناً الكرام: الحقيقة أنَّ ما يجري اليوم في العالم، ونحن نشأنا ومضت السنين، وكل ما انتهت حربٌ دخلنا في حربٍ أخرى، ودائماً نحن في حزنٍ على حال إخواننا، في بلدٍ إلى بلد، وما زلنا في حزنٍ مُستمرٍ على أهلنا في فلسطين، من تكبيهم المستمرة منذ أكثر من سبعين عاماً، فالنظر إلى ما يجري في الكون بعين واحدة، وهي عين الشهادَةِ أو عين الدنيا، يعطي دائماً الصورة منقوصة، لذلك ربُّنا ما قال لك اترك الدنيا، قال لك: **(انظر كيف فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)** لكن لا تنسَ **(وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً)**.

إذا ليس التفصيل في الدنيا، هذا تفصيلٌ مؤقت يزول، فلو خَبِرْتُ إنساناً عاقلاً بين أن أعطيه الآن مئة تنتهي بعد سنوٍ، أو أن أعطيه ملياراً يبقى معه إلى أبد الأبد، فالعاقل يختار المليار إلى أبد الأبد، لا يختار المئة إلى أمدٍ مؤقت، لو قيل له مئة إلى أمدٍ بعيد وملياراً إلى أمدٍ بعيد لاختر المليار، فكيف إذا كانت المئة إلى أمدٍ قصير والمليار إلى أمدٍ لا ينتهي.

الإيمان باليوم الآخر لا يعني أن نترك الدنيا:

(انظر كيف فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) **(وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلاً)** يعني لا بُدَّ أن تُدْجَلَ في حساباتنا دائماً حتى تستقيم نظرتنا، أن تُدْجَلَ اليوم الآخر، لذلك في القرآن الكريم كثيراً ما تكرر قوله تعالى: يؤمنون بالله واليوم الآخر، لأنَّ الإيمان بالله يدفعك إلى طاعته، لكن الإيمان باليوم الآخر يُعيد لك التوازن، الآن الحمد لله في طاعة الله نسال الله أن نكون في طاعته، لكن ما يجري حولنا أحياناً يُشعرك بالأسى، بالحزن، بالإحباط، أحياناً تقول انتهينا ما هذا الذي يجري؟ اليوم التصريحات كلها فجور من الصهاينة، أنه نحن نريد أن تُدْجَلَ بعض المساعدات، لا يريدون أن يقولوا إنسانياً، نريد أن ندخلها حتى لا تُهم بجرائم حرب بسيطة جداً ربُّنا تُهي مهمتنا، يعني فجور في الإجماع والعياذ بالله غير مسبوقة، فأت عندما ترى تعالي أهل الباطل وانتفاشهم ونطرسهم وكلامهم الذي يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15)

(سورة فصلت)

كما قالت عاد قبل ذلك، وسنُهَجِّر وسنفعل، والآن سننقلهم من الشمال إلى الجنوب، ثم التهجير، وأنت تشعر بالاستصعاف، تشعر بالتخاذل وبالهوان، أنا لا أقول نترك الدنيا معاذ الله، لكن إن لم نستحضر الآخرة بالشكل الأمثل والصحيح، عالم الغيب، ما أعدّه الله لهؤلاء وما أعدّه لهؤلاء، فالصورة منقوصة، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

(سورة الروم)

الغفلة عن الآخرة مصيبة، في الاستحضار مصيبة، في كل لحظة يجب أن تستحضر الآخرة، واستحضار الآخرة لا يعني ترك العمل في الدنيا، ولا يعني ترك نصرة المظلومين أن الله ينصرهم، كما قالوا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (47)

(سورة يس)

ومثلها أن يكون متخاذل، أننصر من لو يشاء الله نصره؟ هذا قول الشرك وقول التُّعد عن الحق، لكن استحضار الآخرة دوماً يعني أن تعمل في الدنيا، وتنصر وتتابع وأنت موقن بهذا اليوم الذي تُسَوَّى فيه الحسابات، وسينتقم الله فيه للمظلومين، وسينتقم من الظالمين، وسنرى بأمر أعيننا مصارع هؤلاء في النار إن شاء الله، وما أعدّه الله من رفعة لمن قضى في سبيله في الجنة.

ما هو الغبن؟

لذلك أيتها الكرام: عندنا في القرآن سورة اسمها سورة التغابن، والتغابن تبادل الغبن، والغبن يقول لك في البيع غبن، أي غبنني، غبنني في البيع يعني السلعة ثمنها عشرة وياعني إياها بعشرين، استغل جهلي بالسوق، أو السلعة سعرها عشرة وياعني بعشرة، ولكن فيها عيب غير ظاهر، أيضاً غبنني، فالغبن هو النقص، والغبن في البيع هو أن تُنقص شيئاً سواءً من قِبل البائع أو المُشتري، وقد يغبن المُشتري البائع فيستغل حاجته للبيع، يريد أن يبيع بيته، عنده في اليوم الثاني سداد في المحكمة، فالبائع معروف ثمنه مئتي ألف فيغبنه فيه ويقول له أريد أن أخذه بمئة ألف، يستغل حاجته للبيع بفرق كبير في السعر، فالغبن موجود في البيع والشراء، وعندنا خيار في الفقه اسمه خيار الغبن، أي إذا تبين أن المُشتري غبن، أو البائع غبن، يعود أحدهما على الآخر بخيار فقهي له تفصيلات اسمه خيار الغبن، كما هناك خيار الشرط، وخيار المجلس، وخيار العيب، فهذا خيار الغبن، أن يغبنك البائع أو أن تغبن البائع، فالتغابن هو تبادل الغبن، يعني أنا أغبن وهو يغبنني، كيف يكون يوم القيامة هو يوم التغابن كما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ ۖ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

(سورة التغابن)

التغابن يوم القيامة عظيم جداً:

المغبونون أكثر يوم القيامة، الغبن في الدنيا مثلاً باع السلعة بمئة ليرة وهي لا تستحق ليرة، غبن كبير، يحزن الإنسان ساعتين ثم ينسى، أنا غُبنْتُ وانتهى، ثم بعد حين يتندر بها، كلنا غُبنَّا في الدنيا وانزعجنا فترة ثم بعد ذلك هانت المصيبة في أعيننا، ثم أصبحت ككتبة تتندر بها، الغبن موجود، فكل إنسان يُغبن، يُغبن بزواجه، يُغبن بماله، يُغبن بمنصب مُغبن، لكن الغبن في الدنيا زائل، والحزن عليه مؤقت، لكن الغبن يوم القيامة عندما يكتشف الكافر أنه أعطى للدنيا حتماً أكبر من حجمها بكثير، جعلها منتهى آماله، ومحط رُحاله، وباع دينه من أجلها، وظلم الناس من أجل ذريعات، وقاتل في الدنيا وتعب من أجل منصب يُحْضَله، ثم لما حُضَله ظلم الناس من خلاله، ثم اكتشف يوم القيامة أن الدنيا كلها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وأنه الآن بدأت الحياة، وتلك الحياة التي مضت لم تكن شيئاً، هذا غبن عظيم، غبن غير قابل للإصلاح، ليس فيه خيار، ليس هناك خيار الغبن أنه يعود ويُصلح، انتهت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ
بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

(سورة المؤمنون)

عندما يأتي مَلَك الموت انتهى لا رجوع، فالتغابن يوم القيامة عظيم، حتى بين أهل الجنة في الجنة، عندما ينظر إنسان ويقول لك هذا فَضِّل عليَّ بأعلى الدرجات، كنت أستطيع أن أنفق، كان لدي مال ولم أنفق، أمّا هو كان معه المال وأنفق، كان يقوم الليل وكنت لا أقوم الليل، كان يبرِّ والدته وكنت أقصّر في ذلك، استحقَّ الجنة الطرفان، لكن فرق كبير بين هذا وذاك، سأسبِّحها بمثل:

طلاب التوجيهي الآن مُقبلون إن شاء الله على امتحان التوجيهي، يوم التغابن للتقريب فقط هو يوم صدور النتائج، فلما تصدر المفاضلة فيكون فرق في علامة واحدة، لو أنه أخذ هذه العلامة كان انتقل إلى الفرع الذي هو يطمح إليه في الجامعة، فيشعر بالغبن الشديد، والراسب الذي رجع ليعيد السنة من جديد، أو عليه مواد كثيرة، وتأخّر دخوله إلى الجامعة، ورأى أصحابه كلهم في الجامعة، مثلاً عملوا مجموعة على الواانس أب وهو ينظر ماذا يفعلون، ورأى أنَّ الجامعة جميلة ومريحة أكثر من المدرسة، وهو عاد للوراء ليعيد المواد التي قدّمها، فيشعر بالغبن، بالنقص عنده في مقابلهم، وهم بين بعضهم يشعرون بالغبن فيمن حصل المرتبة الأعلى والمرتبة الثانية والثالثة، فالكل يشعر بالغبن إلا الذي حصل الأول على المملكة، فهذا الوحيد الذي لا يشعر بالغبن.

فقضية التغابن هي شعورٌ بالنقص، أن يشعر الإنسان بأنه كان يمكن أن يفعل شيئاً لكنه لم يفعله، وشعور الندم صعب، شعور الندم يأكل القلب أكلاً، يعني أنا كان ممكن أن لا أستحق النار، لي مقعد في الجنة، ورد في بعض الأحاديث أنَّ:

{ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُثُ بِهِ الْأَرْضَ، فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفْدٌ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَتَكَلَّمُ عَلَيَّ كِتَابِيَا، وَتَدْعُ الْعَمَلُ؟ قَالَ: اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُبَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَبَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُسَبَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ: {قَامًا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} }

(صحيح البخاري)

بمعنى أنَّ له مكانٌ موجودٌ هنا ومكانٌ موجودٌ هنا، فأنت تختار، فلما يذهب إلى النار والعياذ بالله، ينظر إلى مقعده في الجنة ويقول: كان لي مكان في الجنة تركته وذهبت إلى نار الجحيم والعياذ بالله، فلذلك سمَّاه الله تعالى قال: **(ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ)** التغابن في الدنيا مهما كان عظيمًا، ومهما شعر الإنسان بالغبن، ومهما شعر بالنقص، ومهما شعر بالندم، فكله إلى زوال، لكن يوم القيامة عندما تُنشر الصحف، وعندما يأخذ هذا كتابه بيمينه، وهذا كتابه بشماله، وعندما ينطلق هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار، قال: **(ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ)** هناك الغبن الحقيقي الذي يندم عليه الإنسان ندمًا لا يعدله ندم، ولات ساعة مندم، انتهى الوقت، فرعون وهو أكفر كُفَّار الأرض، وهو الذي قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

(سورة القصص)

وقيلها قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

(سورة النازعات)

بعد ذلك قال: **(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)** بمعنى أنه حسب معلوماتي لا يوجد إلهٌ غيري، فتكبرَّ والعياذ بالله، لما أدركه العرق قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو
إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

(سورة يونس)

قال الله له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَّا نَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)

(سورة يونس)

انتهى الوقت.

الإنسان العاقل هو الذي يُعد العدة ليوم التغابن ولا يغفل عنه:

خيارنا مع الإيمان يا كرام، خيار الناس مع الإيمان، خيار الناس مع التقوى، خيار الناس مع العمل الصالح، ليس خيار أن يقبل أو أن يرفض، الخيار أن تقتل أو أن ترخص موجود في الدنيا، بمعنى أن إنساناً غرض عليه بيت ليشتريه ودخل فقال لك هذا البيت صغير، كسوته قديمة، رفض، هذا له أن يقبل أو أن يرفض. شابٌ يريد أن يتزوج ذهب إلى فتاة لم يجدها متعلمة فرفض، فتاة تقدم إليها شابٌ تطارت إليه وجذته قليل ذات اليد، تريد أفضل منه فرفضت، فخير قبول أو رفض، يقبل أو يرفض، لكن مع الإيمان الخيار ليس قبول أو رفض، القبول مُحقق حتماً، لكن إمّا بالوقت المناسب أو بعد فوات الأوان، فرعون قيل الإيمان ولكن بعد فوات الأوان. إنسان جلس على طاولة الامتحان ولم يعرف أن يُجيب على أي سؤال، لمّا انتهى الوقت وسحبوا الورقة، قال: عرفت الإجابة تذكرت، قالوا له: لكن الوقت انتهى، فليست القضية أن تعرف أو لا تعرف، القضية أن تعرف الإجابة ولكن في الوقت المُحدّد، وربّما جلّ جلاله أعطانا هذا العمر لتتعرّف إليه وتطيعه ضمن الوقت المُحدّد، عند الموت انتهى الوقت. فأحبّابنا الكرام: العاقل والذكي إن صحّ التعبير، والمتفوّق والناجح والعالج هو الذي يُعد العدة لهذا اليوم، ليوم التغابن، والناس الحمقى هم الذين يعيشون لحظتهم ودنياهم ويقولون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَتُنَبَّوْنَ (24)

(سورة الجاثية)

لا ينظرون إلى ما بعد هذه الدنيا، ولا ينظرون إلى الآخرة، ولا ينظرون إلى جنتٍ أو نار. فأسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يؤمنون باليوم الآخر إيماناً حقيقياً وكأننا نراه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَلَّا لَوْ نَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6)

(سورة التكاثر)

كأننا نرى الجنة والنار.

{ أَنَّهُ مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَبْكِي ، فَقَالَ : مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، تَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، فَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْأَزْوَاجِ وَالصَّبِيْعَةِ نَسِينَا كَثِيرًا قَالَ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَكَذْلِكَ أَنْطَلِقُ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْطَلَقْنَا فَلَمَّا رَأَاهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تَكُونُ عِنْدَكَ تَذْكُرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، رَجَعْنَا عَاقَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالصَّبِيْعَةَ وَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ ، وَفِي طَرَفِكُمْ ، وَعَلَى فُرُشِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً سَاعَةً وَسَاعَةً . }

(أخرجه الترمذي ومسلم)

رَأَى الْعَيْنَ الَّذِي يَكُونُ يَقِينِي مِثْلَ الْمِثْلَةِ ، الْيَوْمَ الْآخِرُ وَكَأَنَّهُ يَقِينِي مِثْلَ الْمِثْلَةِ ، وَكَأَنَّكَ تَرَاهُ رَأَيْ عَيْنٍ ، قَادِمٌ لَا مُحَالَةَ ، إِيْمَانٌ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يَسْتَقِيمُ الْإِنْسَانُ عَلَى مَنْهَجِ اللَّهِ ، يَعِدُ لِلْمَلِئُونَ قَبْلَ أَنْ يُفَكَّرَ أَنْ يَظْلِمَ نَمْلَةً وَلَيْسَ إِنْسَانًا ، يَتَوَازَنُ مَعَ مَا يَرَاهُ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ ظُلْمٍ وَأَسَى وَقَتْلٍ وَدِمَارٍ ، يُصْبِحُ عِنْدَهُ تَوَازُنٌ ، فَيَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ الْآخَرُونَ ، وَيَرَى مَا لَا يَرَاهُ الْآخَرُونَ ، لِأَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ.

الدعاء:

اللهم انصُرْ أَهْلَنَا فِي غَزَاةٍ نَصْرًا عَاجِلًا مُؤَزَّرًا، اللَّهُمَّ يَا رَبِّ أَطْعِمْ جَائِعَهُمْ، وَاكْسُ عَرِيَانَهُمْ، وَارْحَمْ مُصَابَهُمْ، وَآوِ غَرِيبَهُمْ، وَاغْفِرْ لَنَا تَقْصِيرَنَا بِحَقِّهِمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.
اللهم مُجْرِي السَّحَابِ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، هَازِمَ الْأَحْزَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الصَّهْيَانَةَ الْمُعْتَدِينَ وَمَنْ وَقَفَ مَعَهُمْ وَمَنْ أَيْدَهُمْ فِي سَرٍّ أَوْ عَلَنٍ.
اللهم إِنْهُمْ يَقُولُونَ: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، وَقَدْ غَابَ عَنْهُمْ أَنَّكَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، فَكُنْ لَهُمْ يَا رَبِّي بِالْمُرْصَادِ، وَضُبَّ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِكَ سَوْطًا مِنْ عَذَابِ، إِنَّكَ يَا رَبِّي سَرِيعَ الْحِسَابِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.